

يوحنا الدمشقي

JOHANNES DAMASCENUS

للدكتور جراد علي

— ٢ —

—>>><<<—

ذكرنا أن يوحنا جادل المشركين في طبيعة المسيح ، وأنه وضع خطة للمسيحيين وجادة ثابتة للبحث والمناظرة أسهلها بهذه الكلمة : « إذا سألك العربي ما تقول في المسيح ؟ نقل له إنه كلمة الله ، ثم يسأل النصراني المسلم بعد ذلك : « سمي المسيح في القرآن ؟ ويرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم فإنه سيضطرب إلى أن يقول : « كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه » (١) ، فإن أجاب بذلك ، فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله إذا كان ولم تكن له كلمة ولا روح . فإن قلت ذلك فسيفهم العربي ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين » (٢) .

قال المستشرقون : أثار يوحنا بهذا السؤال وبأمثاله مشاكل خطيرة في الإسلام كشكلة « خلق الأفعال » ومشكلة « خلق القرآن » ومشكلة « صفات الله » وأضرابها . لأنه استدريجهم على رأيهم بهذه الأسئلة والأجوبة إلى أمور لم يكن المسلمون يخوضون فيها . وهو رأى لا يسمح لنا الموقف بالتعرض له لأننا في موضع ترجمة شخص لا في موضع مناقشة آراء .

على أن في كتب الأخبار والفرق والتواريخ ما يتعارض مع كثير من عقائد مذهب المستشرقين . وما بالناس نذهب بعيداً وفي عبارة يوحنا نفسها ما يفند هذا الرأي ويدحض هذا الزعم ؟ جاء على لسانه : « سيفهم العربي لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين » ، ومعنى هذا أن جماعة من المسلمين كانت تتباحث في

(١) سورة النساء آية ١٧٠ .

(٢) عن تراث الإسلام ج ١ ص ٢٤٨ . راجع ميمي رقم M. 94. 1585 # . جاء في ملحوظة (١) من تراث الإسلام ج ١ ص ٥٤٨ . روى ابن خلكان في أخبار الحكماء . وهذا خطأ إذ أن مؤلف أخبار الحكماء هو .

صفات الله هي قديمة أزلية أم حادثه ومن جملة ذلك كلام الله (١) . والمعروف أن جعد بن درهم الذي ذمحه خالد بن عبد الله القسري في عيد الأضحية ، والذي كان أستاذ مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية كان من القائلين بخلق القرآن (٢) .

وأما « القدر » والتقديرية فقد وردت في القرآن الكريم آيات تدل على أن الإنسان غير قادر على أفعاله . كما وردت آيات تدل على عكس ذلك ، وقد ورد مثل ذلك في الحديث . ويستشهد « المعتزلة » ومن يذهب مذهبهم على صحة دعواتهم بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث من أقوال الرسول (٣) . وقد ورد على لسان الصحابة ما يدل على أن بعض أصحاب رسول الله كانوا يذهبون بهذا المذهب . فحذ ما جاء في كتاب « نهج البلاغة » لما سئل الإمام علي بن أبي طالب « أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر » (٤) ، وقد أجاب الإمام « بكلام طويل هذا مختاره » .

« ويحك لملك ظننت قضاء لازماً وقدر أحياناً . ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . إن الله سبحانه أشرف عبادته تحبيراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع مكرهاً ، ولم يرسل الأنبياء لعاباً ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً » ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » (٥) .

وروى عن عليّ كل ما يخالف هذا الكلام ، يرويه أصحاب نظرية « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطاه لم يكن ليصيبه » (٦) . وروى عن نافع أن رجلاً جاء إلى ابن عمر ، فقال : إن فلاناً يقرأ

(١) راجع Islam Studies, Part 1 p, 434

(٢) وكان من زملاء غيلان الدمشقي ومعبد الجهني ، راجع كتاب تبصير في الدين لأبي المظفر الأسفرايني ١٩٤٠ ، وكان له رأى في القدر ص ١٣ أيضاً مختصر كتاب الفرق بين الفرق ، اختصار عبد الرزاق بن رزق الله الريسني طبعة فيليب حتى . مطبعة الهلال سنة ١٩٢٤ ص ١٢ .

(٣) راجع كتب المعتزلة كالتكشاف لازمخسري وكتب علم الكلام أيضاً كتاب الكافي للكليني في الحديث وهو يشرح وجهة نظراً أئمة الشيعة

(٤) راجع نهج البلاغة في باب المختار من حكم أمير المؤمنين . راجع شرح ابن أبي الحديد .

(٥) نهج البلاغة شرح الإمام محمد عبده ج ١ ص ١٥٣ وهناك رأى الإمام (٦) شرح العقائد الشيعية ، كذلك ضمن الإسلام ج ١ ص ٣٤٥ .

فالأحداث السياسية التي حدثت بعد وفاة الرسول، والأوضاع الاجتماعية هي التي أثارَت تلك المشكلة التي وردت في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول مع غيرها من المشاكل التي كان الصحابة يحجمون عن الخوض فيها وأعتى بها مشكلة التشابهات .

روى العلماء أنه « في عهد الفاروق رضى الله عنه ، أخذ رجل يقال له صبيغ بن عسل يسأل عن التشابه ويتكلم فيما لا ينيه بما قد يحدث فتناً بين العامة ، فطلبه عمر وقال له : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ ، وقال عمر : أنا عبد الله عمر . فأخذ يضربه بعراجين النخل حتى دمی رأسه . فقال صبيغ : حسبك يا أمير المؤمنين ، قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي ، ثم نفاذ إلى البصرة حتى صلح حاله (١) .

وعلى كل فقد حدثت هذه المشكلة ، مشكلة القدر والاستطاعة قبل أن يخلق يوحنا بزمن ، فلا يصح إذاً أن يقال بأن يوحنا كان هو مشير هذه المشكلة في الإسلام ، وأن نظرية « القدر » دخلت عن طريق النصرانية وحدها إلى الإسلام بدليل ظهور هذه المشكلة في الشام ، والشام ملتقى النصرانية في الجزيرة العربية ، وبظهور هذه المشكلة في العراق على يد نصراني يقال له سوسن ، كان نصرانياً فأسلم ، وكان أول من نطق في القدر ، وعنه أخذ معبد الجهني ، وعن معبد هذا أخذ غيلان الدمشقي (٢) . فقد رأينا على أن القول بالقدر كان قديماً ، وعلى أنها لم تقتصر على الشام والعراق ، بل ظهرت في الحجاز كذلك بنفس الوقت الذي ظهرت فيه الفتن السياسية ، إن لم يكن قبل ذلك . وفي رواية ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأنس بن مالك ما فيه الكفاية والتسليم (٣) . ولا عبرة أيضاً بإسناد كتب الفرق هذه الفكرة إلى نصراني معين أو مجهول فقد عودتنا هذه الكتب نسبة الفرق المخالفة إلى اليهودية أو المجوسية أو الثنوية والديسانية ، وهي عادة كانت متبعة لدى جميع أهل الأديان (٤) .

جواد علي

(يتبع)

عليك السلام . فقال ابن عمر : أنه بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر ، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ مني عليه السلام » (١) .

وذكر ابن العبري أن معاوية بن يزيد الأول كان قديراً (من المؤمنين بالاستطاعة) ، وأن عمراً المنصوص كان قد علمه ذلك فدان به وتحققه ، ولم يزل به حتى أفسد رأيه فلم يقبل بالخلافة ، فوثب بنو أمية على عمرو المنصوص وقالوا أنت أفسدته وعلمته ، فطمروه ودفنوه حياً (٢) .

إلى آخر ما هنالك من أخبار تدل على أن « القدرية » أو « قدرة الإنسان على خلق أفعاله » كانت قد انتشرت لدى المسلمين قبل أن ينشأ يوحنا بل وقبل جداله مع المسلمين . وأن هذه الفكرة كانت قد اتخذت شكلاً اجتماعياً سياسياً خطيراً . روى « أن رجلاً قال لابن عمر : ظهر في زماننا رجال يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التي حرم الله ثم يحتجون علينا ويقولون : كان ذلك في علم الله . فغضب ابن عمر وقال : سبحان الله ، كان ذلك في علم الله ، ولم يكن علمه يحملهم على المعاصي » (٣) .

وكان بنو أمية باستثناء نفر منهم (٤) يكرهون القدرية ومن كان يقول بها ، وقد نكلوا بالقدرين كل التنكيل ، ولذلك لم يكن المعتزلة وهم خلفاء القدرين يعطون على الأمويين (٥) . « وبنو أمية كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة ، لا ديناً فقط ، ولكن سياسياً كذلك ، لأن الجبر يخدم سياستهم . فالنتيجة للجبر أن الله الذي يسير الأمور قد فرض على الناس بنو أمية كما فرض كل شيء ، ودولتهم بقضاء الله وقدره . فيجب الخضوع للقضاء والقدر » (٦) .

كذلك أتى عطاء بن يسار ومعبد الجهني الحسن البصري وقالوا : يا أباسعيد ، هؤلاء الملوك يفتكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله تعالى (٧) .

(١) ضحى الإسلام ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) ابن العبري تاريخ مختصر الدول بيروت ١٨٩٠ - ١٩٠٠ وما بعد

(٣) راجع كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم

للبولي أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده طبعة أول مطبعة دائرة

المعارف النظامية بميدان إباد دكن ج ٢ ص ٣٢

(٤) مثل ما ذكرناه عن معاوية وعن يزيد بن الوليد ضحى الإسلام

ج ٣ ص ٨٢ وصروان الجندی .

(٥) ضحى الإسلام ج ٢ ص ٨١ .

(٦) قص المصدر .

(٧) مفتاح الجهاد ج ٢ ص ٣٢ .

(١) التبصير في الدين لأبي المنذر الأسفراييني مطبعة الأنوار سنة ١٩١٠ ص ٢

(٢) راجع التبصير في الدين ص ٤٠ أيضاً اللاكثاني في شرح السنة .

كذلك الملل والنحل للشهرستاني وكتب الفرق الأخرى

(٣) راجع التبصير في الدين ص ١٠ مختصر كتاب الفرق بين الفرق ص ٢١

(٤) راجع كتب تاريخ الأديان .